برتراند راسل

الفيلسوف الذي سعى الى الارتباط بمشاكل العصر (*)

ترجمة : صدقي حطاب

في ليلة الاثنين الثاني من فبراير (شباط) ١٩٧٠ مات ايرل رسل (عضو الجمعية الملكية والحائز على وسام الاستحقاق) في منزله في بلاس بنرين في مقاطعة ميرونث ، وقد بلغ من العمر السابعة والتسعين .

تقوم أحقية برتراند رسل في أن يذكره التاريخ على أساس وطيد ألا وهو مؤلفاته في المنطق الرياضي والرمزي ، وفي الفلسفة ، تلك المؤلفات التي جعلت تأثيره شاملا وعميقا . ان قصة المنطق الرمزي وفلسفة الرياضة في القرن العشرين هي قصة توسع البناء الشامخ الذي وضع أسسه رسل وفريجيه Frege . لقد جرت أعمال رئيسية في تجديد البناء ، ولكنها كانت أعمالا من الداخل . ففي الفلسفة العامة عندما نفكر في مور G.E. MOORE ولودفج فتجنشتاين LUDWIG WITTGENSTEIN باعتبارهما مشكلي الفكر في النصف الأول من هذا القرن ، فاننا نكون حينئذ نفكر في رجال أثر فيهم رسل وأثروا فيه . ولم يترك رسل مريدين وحواريين وانما هناك بدلا من ذلك عشرات من الفلاسفة الذين دفعتهم الاسئلة ، التي كان رسل أول من سألها ، الى البحث والاستقصاء . ولم يكتف رسل بأن يجمع بين صلابة المنطق وصدق الفنان وانما كان يجمع الى جانب هذا كله شعورا حيا بالمضحكات . فاذا كانت هناك من سخافات منطقية مختفية ضمن تركيباته المجردة ، فانه يعرضها بلا رحمة وهو مبتهج بذلك . ولقد أصبحت التناقضات التي لم يكن يتستر عليها تؤلف معضلات الفلسفة .

لقد تمثلت في رسل جميع صفات آل رسل ونزواتهم . كان يعبر عن رأيه دون أن يأبه بالنقد الذي قد يلقاه من الزعماء أو من أصحاب المعتقدات، أو بالقانون الذي ألقى به في غياهب السجن مرتين. لقد ظل طوال حياته حلية ومكسبا لأنواع مختلفة من القضايا العامة ، ومعظمها لم تكن تحظى بعطف شعبي . وكانت آخر هذه القضايا ـ وأخطرها شأنا عنده ـ قضية نزع السلاح الذري من جانب واحد . كان رسل قد وصل في منتصف الثمانينات عندما ألقى بنفسه في خضم هذه القضية بحماس لا يخبو ، وقد استحوذ عليه شعوره بمسئوليته في ايقاظ زملائه على الخطر المحيط بهم . كما سيطرت عليه جسامة الشر الذي يمكن أن تعود به هذه الأسلحة . وفي حدة استنكاره ، ومع

(*) نشرت في نعي رسل في صحيفة التايمز عدد ٤ فبراير ١٩٧٠ بعنوان

"Earl Russel, O.M; F.R.S., Philosopher who sought involvement with Problems of the Age".

النشاط المؤثر لقواه التى اخذت تضعف أخذ مكان التقدير الرزين للوسائل السياسية للخلاص من هذا المصير يبهت شيئا فشيئا أمام ناظريه .

لقد كان رسل هو رجل الفكر فى القرن العشرين الذى حل مشكلة الاتصال ، ولعله سبق الآخرين فى انجلترا الى ذلك . فقد وجد رسل طريقه للاتصال بالعامة واستغلها حتى النهاية ولا سيما ـ وبشكل متعمد ـ فى أخريات حياته . لم يكن هناك شيء جديد فى هذه الطريقة . فالأمر لا يتجاوز التعبير عن أفكار واضحة بأسلوب واضح. ولكن ما اقل الفلاسفة أو الفنانين ممن عاصروه الذين استطاعوا أن يحققوا نصف ما حقق !

ويعادل هذا فى الأهمية قدرته لا على استخدام اصطلاحات لغوية مفهومة لعامة الرجال والنساء ، وانما أيضا قدرته على استخدام اشارات مفهومة للعامة ، لأنها من صميم تجاربهم . فصاحبنا من الخاصة فى نسبه ، وفى تألقه الفكرى ، وفى عاداته العقلية ، وفى سلوكه ، ومع ذلك كان يخاطب العامة بيسر ، كما كانوا يصفون اليه بيسر . والسر فى ذلك نجده فى التناقض الظاهرى ، وهو أنه مع هذا كله كان يشترك معهم فى أسلاف من العامة . لقد كان فكره انجليزيا صميما .

ولد برتراند آرثر وليم رسل (الايرل الثالث فى آل رسل) فى رافينز كروفت Ravenscroft بالقرب من تنتيرن Tintern فى مقاطعة مونمث Monmouthshire فى ١٨ مايو ١٨٧٢ . وكان الابن الثاني للفايكاونت امبرلي Amberley ، وحفيد لورد جون رسل الذى أصبح فى نهاية حياته السياسية ايرل رسل . وأمه كاترين ابنة اللورد ستانلى الألدرلي التاني Lord Stanley of Alderley . وقد كان برتراند يشبه آل رسل كما كان اخوه الأكبر ، الايرل الثاني ، يشبه آل ستانلى . فقد وجدت عبقرية آل رسل تعبيرا عنها فى مظهره وفى صفاته الفنية وفى تعدد مجالات تفكيره . ورسل أول من يعترف بأن جانبا كبيرا من حياته قد جددته السنوات الأولى من حياته ، اذ لم يقصد بها أن تخرج مواطنا تقليديا. لقد تحول والده ـ قبل ولادة برتراند ـ من الايمان المستقيم الى اللا أدرية . وماتت أمه وعمره سنتان ، ومات والده وعمره ثلاث سنوات ، فكفلته جدته « التى كانت متزمتة وصارمة فى مقاييسها الأخلاقية » ، كما وصفها ، وقد أبقت على وجود توحيد غامض فى قصر بمبروك . وكان أبوه قداوصى بأن ينشأ ولداه تنشئة لا أدرية ، وعين وصيين حرّي التفكير عليهما ، ولكن المحكمة لم تأخذ بالوصية ، وعينت قاضي القضاة وصيا على الطفلين .

ظل برتراند رسل يعيش فى البيت (حياة لم تكن سعيدة جدا) حتى ذهب الى كيمبردج وتعلم فى البيت على يد مربيات ومعلمين خصوصيين . وقد كانت كيمبردج هي أول انطلاق له الى العالم الخارجي . كانت ـ كما وصفها ـ « عالما جديدا لا حد لبهجته » ، عامرا بالأصدقاء من أمثال لويس ديكنسون ودكتور تريفيليان وماكتا جارت وجورج ادوارد مور . وقد افتتن بماكتا جارت ومور . وأصبح بفعل تأثير ماكتا جارت من تلاميذ هيجل أو بعبارة أدق من تلاميذ برادلي ، ولكن مور ـ الذى كان أثره على ذلك الجيل كله فى جامعة كيمبردج عميقا وموفقا ـ أبطل سحر هيجل .

التحق رسل بكلية ترينيتي كدارس فى عام ١٨٩٠ وكان ترتيبه السابع فى درجة البكالوريوس فئة أولى فى الرياضيات فى عام ١٨٩٣ . ويمكن تفسير تدني تقديره نسبيا الى أنه لم يكن يهتم بالرياضيات لذاتها ، وانما كان يهتم بها باعتبارها مثلا لمعرفة معينة ، لقد كان اهتمامه فلسفيا . وحصل فى العام التالي على درجة البكالوريوس فئة أولى فى العلوم الأخلاقية بامتياز فذ . فلما

ترك كيمبردج أمضى بضعة شهور كملحق شرفي فى السفارة البريطانية فى باريس ، وبعد ذلك ارتحل الى برلين فدرس المسائل الاجتماعية والاقتصادية ، وقد جاءت ثمرة هذه الدراسة مبكرة فى عام ١٨٩٦ حين ألقى فى مدرسة الاقتصاد فى لندن ست محاضرات عن ديمقراطية المانيا الاجتماعية . ولكنه ترك العمل السياسي الذى بدا وكأنه قد ورثه .

انتخب فى عام ١٨٩٥ محاضرا فى كلية ترينيتي Trinity College ، وفى عام ١٨٩٦ حاضر فى امريكا عن الهندسة المغايرة لهندسة اقليدس . ونشر (مقالا حول أسس الهندسة)وقاده تحصيله فى الرياضيات والفلسفة الى دراسة المفكر الذى كان أفضل مثل على الجمع بينهما . فنشر فى عام ١٩٠٠ كتابه الممتاز (عرض نقدى لفلسفة لايبنتس) (٢) وهو أول أعماله الكبرى . ودفع فى هذا الكتاب من قدر فكر لا يبنتس Leibniz كثيرا ، واكثر مما كان يلاقي من تقدير فى ذلك الحين ــ ولم يتحول عن هذا التقدير أبدا ، فقد وصف لا يبنتس فى كتابه (تاريخ الفلسفة الغربية) History of Western Philosophy بأنه « أحد رجال الفكر الأفذاذ فى كل الأزمان » . ولا شك أن حكم رسل قد بني على اعترافه بلايبنتس « كرائد فى المنطق الرياضي ، أدرك أهميته عندما لم يدركها أحد غيره » . وهذا هو الميدان الذى أنجز فيه رسل أكثر أعماله ثورة ، وقد شابه لايبنتس تماما فى نظرته وفى انجازاته .

وفى عام ١٩٠٠ لفت رسل الأنظار ، فى مؤتمر للرياضيات فى باريس ، الى مؤلفات بيانو Peano ، كما لفتها فى عام ١٩٠٣ الى مؤلفات فريجيه Frege . وفى ذلك الحين كان لهما أوثق التأثير على فكره . وبفضل هذه الاكتشافات ، وبفضل لايبنتس ، أعطى العالم فى عام ١٩٠٣ كتابه (أصول الرياضيات Principles of Mathematics) الذى كان الغرض منه « أولا بيان أن جميع الرياضيات تنبع من المنطق الرمزى، وثانيا كشف أصول المنطق الرمزى نفسه ما أمكن ذلك » . وقد قصد بكتاب (أصول الرياضيات) أن يكون الجزء الأول الذى يتلوه جزء ثان يشتمل على عرض استنباطى للنتائج . ولكن هذه المهمة نفذت فى كتاب مستقل الفه بالتعاون مع الفرد نورث وايتهد . وبدءا فى تأليف كتاب (أسس الرياضيات Principia Mathematica) فى عام ١٩٠٠ وأتماه بعد عشر سنوات فى ثلاثة أجزاء نشرت على التوالي فى الأعوام ١٩١٠ و ١٩١٢ ، ١٩١٣ . وأعيد نشر الكتاب مع مقدمة جديدة فى عام ١٩٢٥ ، وفى السنوات التالية . وقدمت الجمعية الملكية التى انضم اليها رسل فى عام ١٩٠٨ منحة لنشر الكتاب من اموال الحكومة. وكتب رسل فيما بعد ما يلي عن تأليف هذا الكتاب : « ان فكرى لم يشف تماما من الاجهاد أبدا . ولا شك انني منذ ذلك الحين اقل قدرة على تناول التجريدات الصعبة كما كنت أتناولها من قبل » .

ان كتاب (أسس الرياضيات) من الكتب الفاصلة فى تاريخ الرياضيات والمنطق معا . فقد تحقق فى هذا الكتاب ــ بصورة أوفى وأفضل مما تحقق فى أى كتاب سابق ــ تحويل الرياضيات الى فرع من فروع المنطق . وقد برزت فى أثناء عملية التحويل فى أيد ماهرة رمزية جديدة ذات قوة منطقية كبيرة . ولقد كان أدوم ما قدمه رسل للفكر الفلسفي وأثبت سمة من سمات جميع كتاباته الفلسفية هو استخدامه لهذه القوة .

---

1 — **An Essay on the Foundations of Geometry.**

2 — **A Critical Exposition of the Philosophy of Leibniz**

وقد سمى هو نفسه هذا الاسهام « الذرية المنطقية » Logical Atomism ، وهو تعبير يوفي مهارته ونفاذ بصيرته فى التحليل المنطقي حقهما ـ فى محاولته حل الأفكار المعقدة الى عناصر ان لم تكن بسيطة فانه لا يمكن دحضها .

ان تفصيلات انجازات رسل التى تجعل المرء يتحدث دون أدنى مبالغة ـ بالنسبة للفكر البريطاني على الاقل ـ عن فلسفة ما قبل رسل وعن فلسفه ما بعد رسل ، هي موضوع اهتمام طالب الفلسفة . ولكن حتى رجل الشارع يستطيع أن يفهم قيمة تحرير التحليل المنطقي من طغيان النحو العادى والاعراب . لقد كان تقويم رسل المتواضع الذى قوم به فى المرحلة المتأخرة من حياته انجازاته على النحو التالي « ان نفع تركيب الجمل الفلسفي بالنسبة للمشاكل التقليدية عظيم جدا » .

واحسن ما يوضح هذه النقطة تلخيص لأهم ما اكتشف رسل وهو نظرية الوصف التى طورها فى مقالته « حول الدلالة » التى نشرها فى مجلة Mind فى عام ١٩٠٥ . ان عبارات مثل عبارة « رئيس الولايات المتحدة الحالي » قد سببت كثيرا من الازعاج الذى لا نفع منه للفلاسفة الذين حاولوا أن يجدوا معنى الوجود . » فلنفرض أننى قلت « ان الجبل الذهبي غير موجود » ولنفرض انك سألت « ما هو الجبل الذهبي ؟ » فانه يبدو انني قلت « انه الجبل الذهبي » فانني أكون حينئذ أعزو اليه نوعا من الوجود » . فالفرق فى العبارتين « الجبل الذهبي غير موجود » و «المربع الدائرى غير موجود » فى الالفاظ وحدها . ان كلا من « الجبل الذهبي » و « المربع الدائرى » تدل على شيء يختلف عن الآخر بالرغم من أنهما غير موجودين . وهذه هي المشكلة التى حاول رسل أن يجابهها بنظرية الوصف . فبموجب هذه النظرية تفسر جملة « سكوت S.ott هو مؤلف رواية (ويفرلي) » على انها تقول « هناك كائن ما هو س بحيث ان عبارة » ص كتب رواية ويفرلي » صحيحة اذا كان س هو ص وغير موجود « تعني » ليس هناك كائن ما هو س بحيث ان « ص ذهبي وجبلي » صحيحة عندما تكون س هي ص ، وليس غير ذلك . » وهكذا فان « الوجود » لا يمكن أن يكون غير تأكيد الأوصاف . ولعل رسل لم يكن يبالغ حين تحدث عن هذه النظرية فوصفها بأنها عملت على«انقشاع ألفي سنة من الاضطراب الذهني حول «الوجود» بادئة بمحاورة Theaetetus لافلاطون » .

وقد استخدم رسل خلال خمسين عاما من التأليف الفلسفي قوة هذا الأسلوب المنطقي الهدامة فى فحص المشاكل التقليدية والفلسفات التقليدية، وسواء أكانت استنتاجاته مقبولة أم غير مقبولة فان مجرد استعمال الأسلوب كان مصدرا للتوضيح والتنوير ولا سيما فى تحليله للعلاقات وللفئات والاستمرار واللانهاية والصور اللغوية . واخلد اعمال رسل العظيمة مده المستمر للشك المنهجي الى كل ميدان من ميادين البحث الفلسفى . ان ما يميز تجريبية رسل التحليلية الحديثة ـ كما يقول هو نفسه ـ عن تجريبية لوك وباركلى وهيوم هو وحدة الرياضيات وتطوير أسلوب منطقي قوى . لقد كانت المعرفة التجريبية والمعرفة الاستنباطية هما النوعين الوحيدين من المعرفة اللذين كان رسل على استعداد للاعتراف بهما . لقد كان يبحث عن اجابات على مسائل الفلسفة التى كان لها « صفة العلم أكثر من صفة الفلسفة » . وقد اعترف بأنه قد توجد هناك مسائل لا يستطيع العلم والفكر أن يجد أجوبة لها ، ولكنه رفض أن يعترف بأن هناك طريقة أخرى ، حدسية أو غير ذلك ، يمكن أن تعطى أجوبة .

ولعل تجريبية رسل هي أصوب ما فى تطفلاته على الفلسفة السياسية ، وهي تطفلات شاذة ،

ولكنها لطيفة فى الاغلب . فلم يكن رسل فيلسوفا سياسيا . ولكن رجلاً وُلِد وفى عروقه دماء آل رسل قد لا يستطيع أن لا يحمل روح لوك Lock. كتب فى عام ١٩٤٧ فى كتابه الفلسفة والسياسة Philosophy and Politics يقول : ان الفلسفة الوحيدة التي تقدم تبريرا نظريا للديمقراطية ، والتي تتفق مع الديمقراطية فى مزاجها العقلي هي التجريبية . لقد بيّن لوك الذى يمكن اعتباره مؤسس التجريبية مدى الترابط الوثيق بين هذا وبين آرائه حول الحرية والتسامح . ومن هنا مضى رسل يقول : « ان جوهر النظرة الليبرالية لا يكمن فى نوع الآراء المتبناة وانما فى طريقة تبنيها، فهي تتبنى بشكل تجريبي بدلا من أن تتبنى بشكل جازم » . غير انه لا يمكن القول بأن رسل قد التزم بهذا المبدأ فى جميع تصريحاته وخطبه العامة .

رشح رسل نفسه فى عام ١٩٠٧ للبرلمان عن منطقة ويمبلدون مطالبا بحق المرأة فى الانتخاب ولكنه فشل . ولكن حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ هي التي هيأت متنفسا لدافع لم يشبع عنده هو دافع الخير . فقد انخرط بدون تردد وباخلاص فى حملة السلام . وقد جعلته النتائج السيئة مركز عاصفة وطنية ، ولا نستطيع أن نثبتها هنا الا مجملة . أكد رسل فى صحيفة التايمز أنه مؤلف نشرة عن (رابطة عدم التجنيد) ومن ثم حكم عليه مقر رئيس بلدية لندن بغرامة قدرها مائة جنيه ، وأبعد بطريقة تعسفية ووضيعة عن التدريس فى كلية ترينتي . وصودرت مكتبته هناك لتسديد الغرامة . وكان من المفروض أن يذهب فى خريف عام ١٩١٦ الى جامعة هارفارد ليحاضر فيها ، ولكن المسئولين فى هارفارد أفهموا أن الحكومة البريطانية لا ترى أن من المصلحة العامة اصدار جواز سفر له يمكنه من مغادرة البلاد .

ومنع فى سبتمبر من ذلك العام من دخول أية منطقة محظورة ، كما أن كتيب العدل ابان الحرب Justice in Wartime الذى أصدره فيما بعد، وشبه فيه تحارب الأمم بعراك الكلاب تستفز رائحة فريق منها الفريق الآخر ، جلب له سخطا عظيما . وأخيرا حكم عليه فى فبراير (شباط) من عام ١٩١٨ فى محكمة شرطة العاصمة فى لندن بالسجن ستة أشهر لأنه علق فى نشرة رابطة عدم التجنيد على الجيش الأمريكي تعليقات « قصد بها — ومن المحتمل أن تؤدى الى — اساءة العلاقات بين حكومة جلالته وبين الولايات المتحدة » . وعندما استؤنف الحكم حول القاضي السجن من الدرجة المتوسطة الشدة الى الخفيفة. وكتب فى أثناء فترة سجنه كتابه (مقدمة للفلسفة الرياضية) Introduction to Mathematical Philosphy. وبعد الحرب أرخى لعقله العنان ، فجال فى جميع الدراسات الانسانية تقريبا . زار روسيا فى عام ١٩٢٠ مع وفد من حزب العمال البريطاني فلم يعجب « بدكتاتورية البلشفيين العسكرية » . وأعلن على الفور تحذيره الأول من حقيقة البلشفية — فى كتابه (التطبيق والنظرية فى البلشفية) The Practice and Theory of Bolshevism — وظل ينتقد الشيوعية السوفيتية حتى فى أثناء حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ ، عندما وصلت شعبية رسل الى ذروتها . وجاءت بعض محاضراته التي ألقاها فى لندن على صورة كتاب (تحليل العقل) (١) نشر فى عام ١٩٢١ . وذهب فى أثناء عام ١٩٢٠ الى الصين لمدة قصيرة كأستاذ للفلسفة فى جامعة بكين . ومن ثمرات هذه الزيارة كتابه « مشكلة الصين » (٢) الذى كان مشجبا علق عليه عداءه للحضارة الغربية واليابانية . وعندما رجع من الصين رشح نفسه فى منطقة شيلسي عن حزب العمال فى عامي ١٩٢٢ و ١٩٢٣ ولكنه فشل . وقد كتب بالتعاون مع زوجته الثانية كتابه « مستقبل الحضارة الصناعية » (٣)

---

1 — The Analysis of the Mind

2 — The Problem of China

3 — The prospects of Industrial Civilization

بين كتابيه « الذرات » (١) (١٩٢٣) و « الف باء النسبية » (٢) ١٩٢٥ ، وهما كتابان يمتازان بالشرح الجميل الواضح .

وقد أدى اهتمامهما (هو وزوجته) بالتربية الى اقامة مدرسة فى عام ١٩٢٧ بالقرب من بيترز فيلد ، ومنح الأطفال فيها قدرا كبيرا من الحرية ، ونقلت زوجته المدرسة فى عام ١٩٣٤ الى مقاطعة هيرتفورد . وكتب حول هذا الموضوع كتابين هما (فى التربية) (٣) عام ١٩٢٥ ، و « التربية والنظام الاجتماعي » (٤) عام ١٩٣٢ ، وفى هذين الكتابين اسراف فى الحديث عن الاتجاهات الحديثة . وظهر بين هذين الكتابين كتاب « تحليل المادة » (٥) وهو استعراض رائع للفيزياء الحديثة مع استنباطات ميتافيزيقية أكثر عرضة للجدل . وتلته كتب أخرى هي : « الموجز فى الفلسفة » (٦) و « مقالات فى الشك » (٧) و « الزواج والأخلاق » (٨) و « اكتساب السعادة » (٩) .

ونشر فى عام ١٩٣٤ أهم أعماله خارج ميداني المنطق والفلسفة ، وهو كتاب « الحرية والتنظيم » (١٠) وقد تتبع فيه الأسباب الرئيسية للتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى أوروبا وأمريكا خلال القرن التاسع عشر . وقد غطى هذا الكتاب كتابه الضخم « تاريخ الفلسفة الغربية » حين حاول أن يرى الأفكار من خلال اطار العصر الذى ولد هذه الأفكار . ولكنه يختلف فى تأليفه عن الكتاب الثاني ، فالتركيب فيه أكثر من التحليل ، ويضم شيئا من كتاباته المضيئة .

وبالرغم من أن نجاح قوة حمقى كالهتلرية هز كثيرا من نزعاته العقلية ـ كما هز الكثيرين ـ وجعله يهجر دعوته الى السلام ، وبالرغم من أنه حاول (ولكنه فشل) أن يحلل طبيعة (القوة) (١١) فى كتاب مشهور ، كان يفتقر الى التجهيز السياسي الذى يمكنه من تحقيق وصف شاف لمشكلة القرن العشرين السياسية . ويظهر هذا فى محاضراته التي ألقاها فى عامي ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ فى برنامج محاضرات ريث The Reith Lectures وهي بعنوان (السلطة والفرد) . فقد أخطأ فى اختيار الموضوع الذى تحدث فيه ، ولكنه لم يسك فى قدرته على ربط الأفكار المعقدة بتجارب الناس العاديين اليومية .

وأصبح رسل فى السنوات الأخيرة عرضة لأن يغدو شخصية شعبية ومحترمة بل ومبجلة . فقد منح فى عام ١٩٥٠ جائزة نوبل فى الأدب ، وكان قد منح قبل ذلك بعام وسام الاستحقاق ، وفى عام ١٩٥٣ انتخب مشاركا شرفيا فى معهد نيويورك الوطني للفنون والآداب ، وهو الذى كان قد حكم عليه من قبل بعدم اللياقة لشغل الكرسي الجامعي فى احدى الجامعات الأمريكية ، وقد كان

---

1 - - The A.B.C. of Atoms
2 - - The A.B.C. of Relativity
3 - - On Education
4 --- Education and the Social Order.
5 --- The Analysis of matter
6 --- An Outline of Philosophy
7 --- Sceptical Essays
8 --- Marriage and Morals.
9 --- The Conquest of Happiness.
10 --- Freedom and Organisation.
11 --- Authority and the Individual.

يمكن أن تكون شيخوخته صافية كشيخوخة فيلسوف عاقل وحكيم أليف ، مكرم ، يصغي اليه بود واحترام ، ويعطي بين الحين والآخر التعليق الساخر والحاد بما يبقي على أسطورة الثائر حية .

ولكنه اختار سبيلا غير هذا ، فلا زالت تتردد في الذاكرة أصداء كلمة أذاعها في عام ١٩٥٤ بعد انفجار القنبلة الهايدروجينية الأولى ، حين ارتفع صوته النحيل الرتيب يملؤه زخم محايد لبني « تذكروا انسانيتكم وانسوا ما دون ذلك . فاذا استطعتم أن تفعلوا ذلك ، فان الطريق امامكم مفتوح الى الجنة الجديدة ، فان لم تستطيعوا فليس أمامكم سوى الموت الشامل » . وهو تحذير ظل يكرره بصوت حاد ومرتفع حتى وافته المنية .

لقد ساعد في ولادة حملة نزع السلاح النووي في فبراير عام ١٩٥٨ وأصبح رئيسها ، وحاول قبل هذا وبعده حشد آراء العلماء لتأييد وجهات نظره . وفي سبتمبر من عام ١٩٦٠ ضاق ذرعا بأسلوب حملة نزع السلاح النووي المتقيد بالقانون ، ووجد أن رئيسها كولينز Canon Collins شخصا « من المستحيل العمل معه » فانشق عنها مؤلفا لجنة المائة « للعصيان المدني ضد الحرب النووية » . وقد أثبت العصيان أنه من النوع المنظم ، واستمر رسل ـ الذي كان قد أدرك الثامنة والثمانين حينئذ ـ يطوف بالبلاد طولا وعرضا داعيا للحملة ، ويصدر البيانات العاجلة للصحف ، وينظم المظاهرات العامة بقدر ما كانت صحته تسمح له . ودأب على ارسال برقيات التحذير لزعماء العالم ، ولا سيما في عنفوان الأزمة الكوبية في اكتوبر عام ١٩٦٢ .

ومرة أخرى أدى به تحديه للسلطة الى السجن في سبتمبر عام ١٩٦١ فقد استدعى ومعه بعض أعضاء لجنة المائة الى المحكمة لتحريضهم الجمهور على خرق السلام بدعوتهم الى مظاهرة بالجلوس في ميدان البرلمان . ولما رفض أن يتعهد بأن يكون حسن السلوك حكم عليه بالسجن لمدة شهرين ، وخفض القضاة المدة الى سبعة أيام على أثر احتجاج محامي رسل . وقضى مدة الحكم في سجن بريكستون الذي عرفه قبل ثلاثة وأربعين عاما .

وفي مطلع عام ١٩٦٣ استقال رسل من رياسة لجنة المائة ، ومن الأسباب التي أوردها في تبرير هذه الاستقالة أنه أصبح مشغولا بعمل من نوع آخر وان كان موجها الى نفس الغاية . وفي أواخر ذاك العام أعلن عن اقامة مؤسستين هما مؤسسة برتراند رسل للسلام ، ومؤسسة الأطلسي للسلام ، ويهدفان الى تنمية المقاومة الدولية لتهديد الحرب النووية ، وازدادت عزلته في السنوات الأخيرة من حياته ، حيث كان يعيش في بلاس بنرين في بيته الريفي في شمال ويلز ، وظل أمين سره السيد رالف شومان يصرّف معاملات رسل مع العالم الخارجي فترة من الزمن بينما أخذت مشروعاته العامة التي ربط اسمه بها تزداد غرابة ، كمحكمته الدولية لجرائم الحرب التي قضاتها من رجال الفكر المشهورين الذين حاكموا الولايات المتحدة غيابيا على التهم الناشئة عن سياستها في فيتنام ، وبعد أن واجهت المحكمة بعض الصعوبات بخصوص مكان عقدها ، عقدت جلستها الأولى في ستوكهولم ، وأصدرت قرارها بالاجماع بتجريم الولايات المتحدة .

ولقد كان نشاط رسل مثيرا للجدل ، وملهما لفريق من الناس ورآه الفريق الآخر مضحكا أو موجها في غير وجهته الصحيحة . وقد حجب هذا النشاط في السنوات الأخيرة من حياة رسل انجازات عمره المديد الخارقة : أثره على الفلسفة . وشيء آخر على الجمهور أن يتذكره جيدا وهو عبقريته في تبسيط أوابد الأفكار وصعابها . وقد امتلك ناصية أسلوب جعله في مصاف باركلي

وهيوم اللذين حليا الأدب والفلسفة . وسواء اكتب بالرموز أم بالألفاظ فانه كان بارعا فى كليهما وسلسا فى كليهما . ويحسده كل من يحاول الكتابة لطباقه المحكم ، ولثقته الزائدة بنفسه الرائعة ، ولقسوته المهذبة فى محاورته، ولتناقضاته الباهرة ، ولذكائه ومرحه . وعند ما يكتب رسل ويتدخل فى العاطفة ، ويتقمص الثائر الفيلسوف، فان كتابته يجب أن توضع فى مصاف أشرف ما كتب فى اللغة الانجليزية . وكان أيضا فارسا من فرسان المذياع ، وقد ألقى بعد الحرب عدة سلسلات من الأحاديث الاذاعية التي لا تنسى . ان الصور الموجزة التي رسمها لأعلام معاصريه تمتاز بالوضوح والبراعة ، وشيء من السخرية وشيء من العطف ، وهي تذكرنا بحيوية صور (اسكتشات) جون أوبرى البارعة . وقد نشر رسل فى عام ١٩٦٧ الجزء الأول من سيرته وهو يشمل الفترة الواقعة ما بين ١٨٧٢ ـ ١٩١٤ ، ثم أعقبه بجزئين آخرين .

تزوج رسل أربع مرات . وكانت زوجته الأولى أليس ويتال بيرسول . وقد انحل هذا الزواج فى عام ١٩٢١ ، فتزوج فى نفس هذا العام دورا وينيفرد . وانحل هذا الزواج فى عام ١٩٣٥ . وتزوج فى عام ١٩٣٦ باتريشيا هيلن ، وانحل هذا الزواج فى عام ١٩٥٢ وتزوج فى نفس هذا العام اديث فينش من نيويورك . وقد رزق رسل من زوجته الثانية طفلين هما جون كونراد فايكاونت أمبرلي ، وليدى كاترين جين رسل ، ومن زوجته الثالثة طفلا هو الشريف كونراد سيباستيان روبرت رسل . ويخلف رسل فى اللقب فايكاونت أمبرلي الذى ولد فى عام ١٩٢١ وتزوج فى عام ١٩٤٦ من سوزان دوينفان التي أنجبت له بنتين وانحل زواجهما فى عام ١٩٥٥ .

* * *